

بيده العقاد والجبلاوي

كان بين العقاد والشاعر طاهر الجبلاوي (١٨٩٨ - ١٩٧٩ م) صداقة حميمة، وعلاقة أخوية وثيقة، تجلت أصدائها في دواوين العقاد، وفي مذكرات طاهر الجبلاوي التي نشرها بعنوان (ذكرياتي مع عباس العقاد) . والتي ذيّلها بصور لمجموعة من الرسائل الشخصية التي كان العقاد أرسلها إليه في المحافظات المختلفة التي كان الجبلاوي يُنقل إليها من حين لآخر في عمله الحكومي وهي (الفيوم ، وأسيوط ، وسوهاج ، وقنا) .. ويبدو أنه كان مغضوباً عليه من رؤسائه إذ كان النقل إلى الصعيد في تلك السنين عقوبة من العقوبات التي ما كان أكثر ما توقع الموظفين بعامّة والمدرسين بخاصة ، وقد أشار إلى هذا الشاعر حفني ناصف في قصيدته الشهيرة :

قالوا: نُقلتَ إلى قنا يا مرحباً بقنا وإسنا

وعارضها الشاعر المعاصر عبد المجيد طه حين نقلوه ، إلى مدينة طما وقرية مشطا بمحافظة سوهاج فقال :

قالوا: نُقلتَ إلى طما يا مرحباً بطما ومشطا

قالوا: أكلتَ المشّ قلـ تُ وجبذا بالمشّ لهطا

ويبدو أن طاهر الجبلأوي كان قد طلب إلى العقاد التوسط له لدى كبار موظفي الوزارة ليعيدوه إلى القاهرة فينعم بحافلها الأدبية وندواتها الثقافية وأمسياتها الشعرية التي عرفته شاعراً فحلاً في أواسط هذا القرن .
والذي يؤكد أنه طلب إلى العقاد التوسط تلك الأبيات التي أرسلها إليه وهو في أسيوط يقول فيها :

هل أنصفوا الجبلأوي	وهو بأسيوط ثاوي ؟
أعيش بين أناس	هم آية في المساوي
مُصَبَّحاً وَمُكَسَّي	منهم بذب عاوي
واللؤم والشر فيهم	أضعاف ما قال راوي
أنجد أخاك فإني	على شفير هاوي

ويرد عليه العقاد قائلاً إنه كلم له قوماً في شأن نقله منهم الأستاذ محمود رشيد ويبدو أنه كان صاحب مركز في الوزارة . فلم يفعلوا شيئاً . فعليه أن يصبر إنذاراً على ما هو فيه [وإذا هذه تساوي في لهجة القاهرة كلمة : بقى - بفتح القاف - التي استخدمها العقاد هكذا وهم ينطقونها بأه] يقول العقاد :

كلمت في النقل قوماً	منهم رشيد وغاوي
وممنهم مستقيم	فيما يقول ولاوي
فما أفادوا بشيء	إلا عريض الدعاءوي
فاعد "بقا" واصطليها	في الحر والحر شاوي

وحين كان الجبلأوي في الفيوم امتدت يد أحد اللصوص فسرق حافظة نقوده ولم يترك له شيئاً ، فاستنجد بصديقه العقاد ليرسل له نقوداً . فأرسل له العقاد " شيكاً " ومعه الأبيات التالية يتهمه فيها بأنه ظلم اللصوص حين ادعى أنهم سرقوه ويصفه بأنه (خيتعور) وهي كلمة عامية لا معنى لها وإن حملت سمة التهكم فيقول :

تتجنى على اللصوص من الظلم	فيا ليتهم تجنوا عليك
إن يكن ضاع ما ضاع فاعلم	أن كفيك غالتا كفيك
بين كأس شهية وكتاب	عبقري تجلوبه عينيك
فتقبل شيكاتنا ، ثم حاذر	أن تزوغ الشيكات من كفيك
ثم هرول يا خيتعور من الفيوم	جرياً ولو على قدميك

وينقل الجبلأوي إلى سوهاج وينتقل طاهر الجبلأوي إلى محافظة سوهاج في الصعيد فيرسل إليه العقاد الأبيات التالية يدعوه فيها للحضور لقضاء أحد الأعياد في القاهرة . وهي في ديوانه (ما بعد البعد) الذي أصدره المرحوم الأستاذ عامر العقاد ابن شقيق العقاد بعد وفاة عمه . يقول العقاد :

في العيد منتظروك	فاحضر لنا يا ويكا
سوهاج أضيق من أن	تغنيك أو تحتويك
فالعيش فيها ضنين	بكل ما يرضيك
ولو أردت انتحاراً	لما وجدت (فنيكاً)

[والفنيك هو نوع من الكيمياويات السامة].

ويكاد العقاد في قصيدته هذه أن ينتهج نهج الشعر الحلمنتيشي الذي يزوج - في بنائه الفني - بين الكلمات الدارجة والكلمات الفصحى ، فهو ينجت الفعل (يقيقهر) للدلالة على من يسكن القاهرة مقابل الفعل (يسوهج) للدلالة على من يسكن سوهاج . ويستخدم كلمتي (جهركا ، وسيكا) وهما مقامان موسيقيان مختلفان كما تختلف سوهاج عن القاهرة :

ومـن يقـيـهـر خـيـر	مـن يسـوـهـج دـيـكـا
هـذا يغـنـي جـهـر كـا	وذاك ينشـد سـيـكـا
وذا يصـيـح فصـيـحاً	وذاك يـذـي رـيـكـا
وجائـز حـيـن تـأتـي	ألا تـعـود وشـيـكـا

وذات مرة مات كلب لطاهر الجبلاوي فكتب العقاد رثاءً جميلاً في هذا الفقيد نعى فيه صديق صديقه نعيًا مؤثراً ، فقد كان هو وصاحبه مع الدنيا على أتم وفاق ، وكان يتبادلان الخبرات والأدوار ، فقد يقرأ الكلب ، وقد يخرج طاهر للصيد يقول العقاد :

حزناً على كلب طاهر	فإنه طاهر الكلاب
تشابها في خليقة	وانفقاً - شيمة الصحاب
كلاهما يستفيد من	صاحبه علمه العجاب
فكان للصيد طاهر	وكلبه الفحل "للكتاب"

ونم لخطأهما على سر في الصوف في حجاب
 وربهما عبي طاهر وكلبه حاضر الجواب
 فليس يوفيه حقه في اكتئاب وانتحاب
 إلا إذا ببات نابحاً نبج المساعير في الخراب
 عوعو عووو - بلا ونى ولا انقطاع ولا اقتضاب
 لا تسألوا رحمة له قدر رحم الله واستجاب
 لعله مات قانطاً من قلة الأكل والشراب
 منتحراً في شبابه وهكذا يفعل الشباب
 أراحه الموت من ضنى أنقذه القبر من عذاب
 فليحمد الله ربه من جاع فليرضى بالتراب

وقد حاول الفنان صلاح طاهر - وهو صديق مشترك للعقاد والجبلاوي التسرية عن الجبلاوي بعد موت كلبه ، فأهداه كلباً جديداً أطلق عليه الجبلاوي اسم (ديوجين) تيمناً باسم الفيلسوف اليوناني الكلي (ديوجنيس) وذهب إلى صائغ فعمل له مصباحاً من الفضة علقه في رقبتة . وأعد له جرة خاصة في منزله يعيش فيها مكرماً محترماً ، ولكنه كان يأبى إلا الاختلاط بكلاب الجيران ، وذات يوم تفقده الجبلاوي فلم يجده فكتب عنه يقول :

هجرتني واختفيت فأبي بيت قصدت
 ما كان حظك مني أقل مما طلبت

واللحم والخبز عندي والعطف والود فت
 وحجرة لك فيها من الرغائب شتى
 وشاعراً فيلسوفاً مليئاً إن غويت
 كم من كتاب نفيس بلا حساب قطعت
 وكم صحيفة شعر خطفتها وجريت
 فما ضربت للذنب ولا بقول نهرت
 لم يترد بعض وجد على عزيز خلفت
 فقدتته طي لحد وأنت حياً فقدت
 وكان فيه عزاء من رزئه لو أردت
 فمن لرزأيي أبغي إذا مضى ومضيت
 في كل حي تراني مسائلاً أين بنت
 وكلما شمت كلباً أقول ها هو أنت
 وأرجع الدار عليّ أراك للدار عدت
 فما اهتديت بسعي ولا إلى اهتديت
 فيادي وجين قل لي ماذا دهاك فغبت
 وكلبة كنت تهوى خلفتها وهجرت
 فلا وداعاً جميلاً ولا سلاماً تركت
 فهل خشيت ضلالاً من الهوى فارتحلت

أم اكتويست بنـرار
سيان في الحب هذا
بـالله قل لي ماذا
وبين قـوم كـرام
لا يـرمونك عـطفـاً
أم أنت بين صـغار
موثقـاً في حبـال
تـجر في كل درب
وصرخة لك تمضي
مصباحك اليوم ينـجي
فاحمله وانشد صديقاً
عليك مني السلام

من الغرام فهمت
وذلك أني ذهبـت
بعد الفراق وجدت
تعيش كيف أردت
ورأفة أن شـكوت
لا يـرحمون وقـعت
بغير ذنب جنيت
فإن عصيت ضربت
ما بينهم إن غضبت
من كل شر رأيت
من الأنعام ألفت
في أي دار حللت

فكتب إليه العقاد مواسياً في مصيبة فقد (ديوجين) الغالي قصيدة ذكره فيها يموت كلبه السابق ، وفرار كلبه الحالي ، واستنتج من ذلك أن الجبلوي بخيل ولولا بخله ما هجرته كلابه ، يقول العقاد :

أمست كلابك شتى
كلب نجا وهو حي
ما بين تارك ديننا
وأنت يا صاح أنت
وآخر فرميتاً
وترك لك بيتاً

قل لي بربك ماذا
 حتى ديوجين ولى
 والله ما كان يابى
 أوجدت يوماً عليه
 زعمته راح يهوى
 لا تلزم الحب ذنباً
 فاحمل رغيفاً تجده
 مصباحه ليس يجدي
 أنعم به من حكيم
 رأي السلامة حقاً
 ومن رأي الحق أفتى

على الكلاب جئيت
 يا سوء ما قد صنعت
 لو صادف الخبز بحثاً
 فصادف الأدم زيتاً
 من قومه الغربتاً
 من الصيام تأتى
 في أي صوب نظرت
 فلا تضع فيه وقتاً
 إلى ديوجين متاً
 ومن رأي الحق أفتى

رسائل شعرية متبادلة :

وكان الجبلاوي - وهو من محافظة دمياط - يفضل أن يقضي الصيف في
 مصيف رأس البر فكتب إليه العقاد رسالة شعرية على عنوانه برأس البر يقول فيها
 إلى الأستاذ طاهر الجبالي برأس البر أو برّ الرمال
 سلامٌ من نديوتكم بمصرٍ - وما التصغير إلا للجلال

ثم يذكر له بعض ندوة العقاد الدائمين كالأستاذ الأديب الشاعر محمد
 خليفة التونسي ، والأستاذ محمد الشوربجي ، والأستاذ عبد الحي دياب ، وغيرهم
 ويختتم العقاد رسالته الشعرية بقوله :

وسلم أنت عندك يا أخانا علي الزييات والزييات قال
 "وقال" هذه : قَلِيٌّ وقولٌ ونظم الشعر في قيل وقال
 سلام في سلام في سلام وشرط الرد يُكتب في ارتجال

فهو في هذه الأبيات يهدي سلامه إلى صديقهما الصحفي الأديب المحامي عبد حسن الزييات ، ويسترسل في دعابته الشعرية مستخدماً التورية في كلمة (قال) فيقول أنها تحتمل أن تكون من القَلِي - بفتح القاف وسكون اللام - بمعنى إنضاج السمك في الزيت ، أن من القول ، وقد كان الجبلابي عند حسن ظن صديقه فكتب الرد ارتجالاً من رأس البر فقال :

بعثت إلى من وادي الظلال بأبيات من السحر الحلال
 عرائس من مروج الشعر جاءت ترود الفن في شط الخيال
 فأنستني المصيف وما حواه من الفتن المدلة بالجمال
 تُذَكِّرُ بالندى وزائريه كأني بالندى على اتصال
 وإن تسأل عن الزييات إني أراه محيراً في كل حال
 على الغيطان مشغول وأنا لدودة قطنه يدعون نزال
 وهذا الشعر مرتجل فعفواً فشرط الرد يكتب بارتجال

وقبل أن يعود الجبلابي من مصيفه في رأس البر يكتب إليه العقاد رسالة شعرية أخرى تفيض عنوبة وخفة ظل ، فهو يتخيل ما يعيش فيه في مصيفه ذاك

النعيم والتمتع بملذات الحياة ، ويذكره بأن يأتي إليهم حين يعود بالحلوى
الدمياطي الشهيرة باسم (المشبّك) فيقول العقاد :

سلام في سلام في سلام	إلى الطهور يقرأ كل عام
برأس البر مصطافاً وأنعم	برأس البر في طيب المقام
يطيل بها الصلاة مع الصيام	ويسكن في محارب الإمام
ويرتاد الشواطئ بين عذب	وملح زاخر الأمواج طام
ويركباً طفطفاً ويخاف جداً	من القفز السريع إلى الترام
ويأكل لحم طير يشتهي	مع السمك المبخر في البرام
ولا ينسى الفطائر ذات حشو	أحب إليه من حشو الكلام
وقل ما شئت في عشرين صنفاً	من الحلوى تجيء مع الطعام
و حين نرى المشبك في يديه	يكون لقاءه مسك الختام

ويرد الجبلابي على العقاد ملتزماً الوزن والقافية نفسيهما كما هو الحال في
أية معارضة شعرية ، ويؤكد أنه سيحمل (المشبّك) إلى أصحابه في طريق عودته
إلى القاهرة ، يقول الجبلابي مجيباً العقاد :

وهذا فضل أستاذ كريم	فقل ما شئت في فضل الكرام
يجود بها فرائد كالدراري	تألق في دياجير الظلام
وهأنذا أغادر رأس بري	إلى رأس من العلياء سام
تجمل بالنهى وازداد حباً	إلينا بالمودة والوثام

وفصل القول أني عدت توأ
وفي يدي المشبك في سلام
الجبلاوي في أسيوط :

ويبدو أن حظ طاهر الجبلاوي مع الصعيد كان سيئاً للغاية فبعد أن سرقوه في الفيوم ، وبعد أن نقلوه إلى سوهاج ، نقلوه إلى أسيوط كما أشرنا سابقاً فأرسل أبياتاً لصديقه العقاد يستعيث به ليتوسط له في النقل إلى القاهرة ، ويصف له أهل أسيوط بأنهم آية في سوء العشرة فيقول الجبلاوي :

هل أنصفوا الجبلاوي وهو بأسيوط ثاوي ؟
أعيش بين أناس هم آية في المساوي
مُصَبَّحاً ومُمسِّي منهم بذب عاوي
واللؤم والشر فيهم أضعاف ما قال راوي
أنجد أخاك فإنني على شفير هاوي

ويبدو أن الجبلاوي قد هفا هفوة مما يكون بين الأصدقاء ، وعوقب فيها من العقاد وصحبه ، فاعترف بخطئه ووصف نفسه بأنه (وحش) - بكسر الواو والحاء وهي كلمة عامية معناها : غير لائق - فكتب إليه العقاد وهو في أسيوط سنة ١٩٢٩م يقول :

قلت بها معترفاً وكننت فيها منصفاً
فأننت في الوحاشة بيك وقيل باشته
وأننت في الملاهية أعبط خلق الله

ومرة يكتب العقاد إلى الجبلابي وهو في أسيوط يتنبأ له بالنقل بعد أسيوط إلى قنا وربما ينقل بعدها إلى قرية (دراو) المتاخمة لمدينة أسوان في أقصى الجنوب ، ويؤيسه من التفكير في العودة إلى مصر - أي القاهرة - فيقول :

اليوم تدعى السيوطي وسوف تدعى القناوي
وقد يجيئك يوم فيه تسمى الدراوي
ما أنت والله آت لمصر يا جبلابي

الجبلابي في الفيوم :

أما المدة التي قضاها الجبلابي في الفيوم فقد شهدت كثيراً من المراسلات بينه وبين العقاد ، وقد يرجع ذلك إلى أن الجبلابي كان ينتهز فرصة عطلة الجمعة وقصر المسافة من الفيوم إلى القاهرة فكان يحضر إلى أصدقائه بعد ظهر الخميس أسبوعياً . وربما يصادف أن يكون السبت عطلة لأية مناسبة فتزداد مدة بقاءه مع صحبه في القاهرة كما يظهر من قصيدة العقاد التي بعث بها إليه يدعوه للحضور لاستغلال إجازة الجمعة والسبت وفيها يقول العقاد :

إن يوم السبت القريب بطالة فأركب القطر عاجلاً وتعاله
شوف تلقى إذا حضرت إلينا أكلة حلوة تسيل الريالة
" مكروني " الطليان هيفاء بيضا كومض الأشعة المختالة
وإذا ما الفيوم أبتكتك فافتنع ؟؟؟؟ هناك أو بزباله
وسلام على " ديوجين " منا فهو نعم الزميل في كل حالة

وهو أولى من طاهر بسلام أو كتاب مزخرف أو رسالة

ويكتب إليه مرة يغريه بالحضور يوم الخميس القادم فيقول :

يوم الخميس حضور وسهرة وسحور

وقد يكون غداء وقد يكون " فطور "

وهكذا في جديدا كما تدور نـدور

إن جئت أهلاً وسهلاً أو لا فأنت تغور !

وفي رسالة أخرى يهدد العقاد صديقه بأنه إن لم يحضر إليهم يوم الخميس

فسوف تتغير نظرتهم إلى شعره وقصصه فيقول :

يا جبالي قل لنا هل تجيء بعد ظهر الخميس أو لا تجيء ؟

لك شعر إن جئت عذبٌ بليغ فإذا لم تجيء فـشعر رديء

والروايات أنت تحسن فيها فإذا لم تجيء فأنت سيء !

ولهم عنك قول ناس لطف حين تأتي ، أو لا فقول بذيء

الجبلاوي في قنا :

وقد شهدت المدة التي قضاها الجبلاوي في قنا مراسلات شعرية من نوع

خاص فأكثر تلك المراسلات إما يتعلق بالضغط على موضوع نقله إلى القاهرة ، وإما

يتعلق بالجوافة التي اعتاد الجبلاوي أن يبعث بها من قنا إلى صديقه العقاد

فكانت تصل إليه في حالة يرثى لها من الضعف والاهتراء ، فيكتب العقاد لصاحبه

يقول :

أيها الخيتعور قد وصلت جو
 وعلی الوعد نحن بالكتب شتی
 وعلیها یا حظ حفلة تكریـ
 فانتظر فی قنا إذا خفت یا حظ

أفة منك تشبه الجوافة !!
 والروایات جمّة ، والسلامة
 م كعهد النهی ، وعهد السخافة
 وهیهات أن تفیّد المخافة

ویصف العقاد الجوافة التي وصلته ذات مرة بأنها (موحوسة) فیکتب إلى
 صدیقه الجبلایوی لیصفه بأنه هو أيضاً (موحوس) فیکول مهدداً :

أنت - والله - "برضة" موحوس
 إن جوافةً بعثت بها لا
 ولعمري یا فارس الكون إني
 فانتظر حينما تجئ إلینا

بل غریقٌ فی نحسه مغموس
 خیر فیها یاها الملحوس
 منك فی كل حالةٍ مفروس
 كل خیر تصبو إليه النفوس